الفصل الثامن

معنى الواجب — أقسامه — واجب الإنسان نحو ربه — نحو نفسه — نحو أسرته — نحو وطنه — نحو الانسانية عامة

تستعمل كلمة « الواجب » فيما يقابل « الحق » فما لغيرنا علينا فحق لهم وواجب علينا، وفى هذا المعنى استعملنا الكلمة فى الفصل السابق ، وكثيرا ما نستعملها ولانلاحظ فيها مقابلتها للحق فنقول : « قد أدّى الواجب » و « الواجب يقضى بكذا » ولسنا نلاحظ فيها أنها فى مقابلة « حق » و إن كان التحليل الدقيق قد يؤدّى الى ذلك .

وقد عرّفه بعض الأخلاقيين بأنه العمل الأخلاقى الذى يبعث على الإتيان به الضمير .

وقد اختلف علماء الأخلاق فى الطريقة التى يتبعونها فى تقسيم الواجب، فمنهم من قسمه الى :

(١) واجبات شخصية، أعنى واجبات على الشخص لنفسه كالنظافة والعفة .

(٢) واجبات اجتماعية ، أعنى واجبات على الشخص لمجتمعه ، كالعدل والاحسان .

(٣) واجبات إلهية ، كالطاعة وأداء العبادات .

وهذا التقسيم غير محدود ، فكل واجب يمكن رجوعه الى أىّ قسم من هذه الأقسام الثلاثة تبعا لاختلاف النظر ، فالنظافة مثلا واجب شخصىّ من حيث مايترتب عليها من صحة بدن الإنسان وراحته ، واجتماعىّ اذا لاحظنا أن صحته تؤثر فى حالة المجتمع ، وإلهىّ إذا نظرنا اليها من جهة أنها تنفيذ لأمر إلهىّ .

وقسم آخرون الواجب الى قسمين :

(١) واجبات محدودة يمكن أن يكلّف بها الأشخاص على السواء من غير تنويع ، ويمكن أن توضع فى قانون الأمة ، مثل لا تقتل ولا تسرق ، ويمكن أن توضع بجانبها عقوبات لمنتهكها ، وهذه يشترك فى طلبها القانون والأخلاق .

(٢) واجبات غير محدودة ، وهذه لا يمكن أن توضع فى قانون الأمة ، وإذا وضعت سببت ضررا أكبر ، ولا يمكن أن يعيّن المقدار المطلوب منها ، كالاحسان فانه يختلف المقدار الواجب منه باختلاف الزمان والمكان والظروف المحيطة بالشخص .

والقسم الأول يشمل الواجبات الأساسية التى يتوقف عليها بقاء المجتمع وبإهمالها لا يصلح حاله، والقسم الثانى يشمل الواجبات التى عليها رقىّ المجتمع ورفاهيته، ومن أجل هذا قيل: إن النوع الثانى أرقى من الأول وأعلى منه شأنا، لأن الأول ينفذه القانون والثانى ينفذه الضمير، كالعدل والاحسان، فالعدل من القسم الأول وعليه يتوقف المجتمع، والأحسان من النوع الثانى وهو لا يكون حتى يكون العدل، فالعدل الدعامة والإحسان مشيد فوقه[1].

والواجبات على الناس مختلفة متنوعة، فكل حالة من حالات الحياة تقتضى واجبا معينا، والناس فى هذه الدنيا كبحّارة السفينة، وكجنود الجيش، لكلٍّ عمل وعلى كلٍّ واجب، على اختلاف بينهم فيما يجب عليهم، ذلك لأن الناس مختلفون من وجوه عدّة:

(١) بحسب الثروة فمنهم غنىّ وفقير وبين ذلك.

(٢) وبحسب الرُّتَب لخاصة وعامة.

(٣) وبحسب العمل، فمنهم من عمله عقلى كالقاضى والمدرّس، ومنهم من عمله يدوىّ كالنجار والحدّاد الى كثير من أمثال ذلك — وهذا ينتج خلافا فى الواجبات، فما يجب على حاكم

(١) لسنا نعنى بالاحسان هنا التصدّق على الفقير ونحوه، انما نعنى الفضل فى أداء الواجب، فمثلا اذا كان عليك دين فأداؤه عدل وأن تؤديه بلطف وأدب إحسان.

غير ما يجب على أحد الرعية ، وما يجب على غنيّ غير ما يجب على فقير. وعلى كل إنسان كائنا ما كان أن يؤدّى واجبه. ولا يستصغرنّ أحد ما يجب عليه. فكثيرا ما تتوقف كبار الواجبات على صغارها، فمثلا لا يصح أن نعدّ عمل الكناسين فى الشوارع والأزقة واجبا تافها حقيرا، فإن عليه تتوقف حياة كثير من الناس وحسن صحتهم، وليس هذا بالأمر الهيّن، وأنّ كسر قطعة صغيرة فى سفينة قد يؤدّى الى غرقها كما قد يؤدّى الى ذلك فقد سكّانها (دفتها) وضياع مسمار صغير فى ساعة قد يؤدّى الى وقوفها كضياع "الزمبلك" .

أداء الواجب — على كل إنسان أن يؤدّى واجبه ، ذلك لأن الإنسان فى هذه الحياة لا يعيش لنفسه فحسبُ ، بل يعيش له وللناس ، وأداء الواجب يؤدّى الى هذه السعادة ، فالتلميذ الذى يؤدّى واجبه لأسرته ومدرسته يسعد والديه ، والأغنياء بتأديتهم ما عليهم من بناء للمستشفيات وتبرع للجامعات ونحوها يزيدون فى سعادة الأمة ، وعلى العكس من ذلك السارقون والسكيرون ، فإنهم بإهمالهم الواجب عليهم وعدم إطاعتهم قوانين بلادهم يزيدون فى شقاء الناس وتعاستهم — ولا يبقى العالم و يرقى إلا بأداء الواجب ، ولو أن مجتمعا قصر فى أداء كل واجباته أياما لفنى ، فلو أن المدينين لم يؤدّوا ديونهم ، ورفض طلبة المدارس أن يتعلموا ،

ولم يؤدّ أفراد الأسرة واجبهم، ورفض كل ذى عمل أن يؤدّى عمله لحاق بالمجتمع الفناء العاجل — وبقدر قيام الأفراد بواجبهم يقاس رقىّ الأمة .

يجب أن نؤدّى الواجب لأنه واجب، نؤدّيه إطاعة لضميرنا، لا طمعا فى ربح نناله، ولا رغبة فى شهرة نحصلها، إن الذين يفعلون لك الخير لما يرجون منك من الخير تجار يبيعون اليوم ما يقبضون ثمنه غدا — إنما مثلنا الأعلى أن نصل من الرقىّ الى حدّ أن نتلذذ من أداء الواجب ووصول الخير الى الناس كما نتلذذ من وصول الخير الينا، ونردّد مع أبى العلاء قوله :

فَلاَ هَطَلَتْ عَلىّ ولا بأرضى   سَحائِبُ لَيسَ تَنتَظِم البِلاَدَا

بل مع البارودى قوله :

أدعُو إلى الدَّارِ بِٱلسُّقيا وَبِى ظَمَأٌ
أحقُّ بِٱلرِّىّ لَكِنّى أَخُو كَرَمِ

وكثيرا ما يكلفنا القيام بالواجب مشقات ينبغى أن نتحملها، ويتطلب منا تضحية يلزمنا تقديمها، فالقاضى العادل قد يضطر الى الحكم على صديقه أو قريبه فيؤلمه ذلك، وقد يحمله حبّ العدل على إغضاب أفراد أو هيئات مختلفة فيعرّض بذلك نفسه لأنواع شتى من الآلام، والجندىّ يقدّم حياته عند الخطر فداء لأمته ،

ورئيس السفينة إذا عطبت يجب أن يبقى فى السفينة حتى ينقل جميع من فيها الى قوارب النجاة، وإعلان الإنسان رأيه وتمسكه بمبدئه قد يبعده عن منصب ويحرمه من فائدة، وفى جميع ذلك يجب أن تحمل التضحية — مهما آلمت — عن رضا وارتياح، ويجب أن نعدّ مكافأة الضمير فوق كل مكافأة.

ولكن يجب هنا أن ننبه الى أمرين كثيرا ما يخطئ الناس فيهما.

(الأول) أن التضحية ليست مقصودة لذاتها، ولا يصح أن تكون غرضا يريد الانسان تحصيله، فهى ليست إلا ألما محضا ينبغى الفرار منه إلا إذا استتبع خيرا، فما يفعله بعض الزهاد — من الامتناع عن الأكل إلا النزر اليسير، وحرمان النفس من التمتع بما أحله الله، ولبس الخشن من الثياب لا لغرض إلا طلب المثوبة بهذا الشقاء — خطأ لا يرضى عنه عقل ولا دين، وقد عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من نذر أن يصوم قائما فى الشمس فأمره بإتمام صيامه ونهاه عن القيام فى الشمس، لأن الله لم يضع تعذيب النفوس سببا للتقرب اليه، وليست المشقة نفسها سببا فى رضا الله، وإنما رضاه فى عمل صالح قد يستلزم المشقة، وليس بصحيح قول الناس: "الثواب على قدر المشقة" إذا أخذ على

عمومه، إنما يكون صحيحا إذا كان العمل المقصود عملا خيرا لا يمكن أن ينال إلا بمشقة، فالتضحية ليست خيرا فى نفسها، ولكن إذا كان الواجب لا يمكن أداؤه إلا بالتضحية وجبت التضحية .

(الثانى) ليس لأداء أىّ واجب تقدّم أية تضحية، بل لابدّ أن يوازن بين الواجب والتضحية، فليس صوابا أن يضحى الإنسان بحياته ليرتاح من ألم أسنانه، ولكن خيرا أن يقلم أشجاره ليزيد ذلك فى ثمارها، فمتى كان الخير الذى ننـاله من العمل يرجح التضحية وجبت التضحية، كالطبيب يهجر نومه ويتعرّض للتعب والبرد، لإسعاف مريض وإدخال السرور عليه وعلى أسرته، وكالعالم يهجر راحته ولذته لتأليف كتاب يفيد الناس، أو لاستكشاف يزيد فى خيرهم، والجندىّ يضحى بنفسه لتحيا أمته، والأمثلة على ذلك كثيرة .

ومتى اقتنع الإنسان بخيرية التضحية وجبت عليه، ذلك لأنه عضو من جسم كما بينا، فليس من الحق أن يستأثر باللذائذ ويتمتع بالراحة التامة والناس من حوله أَلِمُون متعبُون، كما لا يستأثر عضو بكل الغذاء ويترك سائر الأعضاء تتضوّر جوعا .

وسِـير عظماء الرجال مملوءة بالشواهد على التضحية، ولا تكاد تجد عظيما لم يضَحِّ كثيرا، إما لنشر مبدأ يخالف فيه الرأى العـام

أو لانقاذ أمته من ضرر يلحقها، أو لتخليص عقائد دينية مما دخل عليها من التغيير، أو لتحقيق مسألة علمية كثر فيها البحث والجدال، أو لاستكشاف نافع يزيد فى سعادة الناس — وهذه التضحية هى التى تكوّنهم، وهى سرّ عظمتهم، فإن ما يبذلون فى حياتهم من الجهد لتذليل الصعاب التى تعترضهم، وما يتحملونه من العناء للتغلب عليها ينمى ملكاتهم ويعوّدهم الصبر على المشاق لنيل أغراضهم، أما من يستسلم للنعيم ويخلد الى الراحة فمحال أن يكون عظيما .

ولنذكر الآن أهم الواجبات .

(١) الواجبات على الإنسان لله

فى العالم قوّة خفيــة تحرّكه، وتدير شؤونه ، هى علة وجوده وبقائه ، وهى سرّ ما نشــاهد من نظام دقيق وقوانين لا تتخلف ، وظواهر تتتابع بانتظام ، نجوم قد دق نظام ســيرها ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وفصول تتعاقب بدقة تســتخرج العجب ، ونباتات وحيــوانات جلّت حياتها عن الوصف — هذه القوّة هى الله رب العالمين .

لهذه القوّة نحن مدينــون بكل شىء لنا ، بحياتنــا وبصحتنا وبحواسنا وبكل ملاذ الحياة وصنوف النعيم .

فواجب علينا حبه وإجلاله وشكــره — نحبه لأنه مصدر كل خير لنا ، وهو الذى مدّنا من قــدرته بكل ما لنــا من وجود وقدرة ، ونحبه لأنه الموجود الكامل الذى لا حدّ لكماله ، ونحبــه لأن من طبيعتنا أن نحبــه ، فكل إنسان على الفطرة يشــعر بحنين الى إله يفزع اليه عنــد الشدائد ، ويتضرّع اليه فى كشف السوء عنه ، ويجد فى الالتجاء اليه سلوة وأسّى عنــد المصائب ، ومشجعا على العمل وباعثا على التضحية اذا دعا الواجب .

ومن آثار حبه التعبد بأشكال العبادات المختلفة ، فإنها خير ما تكون اذا دعت اليها حرارة الحب وكانت مظهرا من مظاهر الإخلاص لله والطاعة له ، وإلا كانت مجرّد حركات وصور وأشكال لا روح لها .

وإن من أحسن أنواع الشكر لله الخضوع لقوانين الأخلاق والعمل بما تقتضيه ، ذلك لأن الله خلق هذا العالم وجعل سعادته مرتبطة بأشياء من صدق وعدل وأمانة ونحوها ، وشقاءه وفناءه فى أضدادها ، ثم أمر بما يوصل الى السعادة وسماه خيرا ، ونهى عما يجلب الشقاء وسماه شرّا ، وتلك الأمور التى توصل الى السعادة هى بعينها قوانين الأخلاق ، فمخالفها عاص لأمر الله جاحد لنعمه ، ومطيعها مطيع لأمره مؤدّ لواجبه .

اذا آمتلات النفس عقيدة بما قدمنا — من أن قوانين الأخلاق هى أوامر الله — صدرت الأعمال عنها ممزوجة بقوّة تجعلها أقوى أثرا وأكثر نفعا ، ولذا ترى أن أكثر من آندفعوا لنصرة الحق وتشدّدوا فى التمسك به أو قدّموا أنفسهم فداء للفضيلة كانوا ممتلئين عقيدة بالله ووجوب طاعته ، ألهبتهم حماسة رغبة فى رضاه وشوق الى لقائه .

واجب الانسان نحو نفسه

يجب على الإنسان نحو نفسه أن يكمل ذاته جسميا وعقليا وخلقيا، فهو مكلف أن يرعى هذه الأمور الثلاثة (جسمه وعقله وخلقه) وأن يبلغ بها ما يستطيع من كمال، ولنذكر كلمة نوضح بها ما يجب فى كل ناحية من هذه النواحى الثلاث .

الناحية الجسمية — كان الإنسان أول أمره يعيش عيشة ساذجة، يخرج الى الجبال أو يتجول فى الغابات يجمع ما يقتاته فى يومه، ولم يكن إذ ذاك مكلفا بهذه الفروض الكثيرة التى قيدته بها المدنيّة، فلا زراعة ولا تجارة ولا تخصص فى عمل، فلما ارتقى وعاش عيشة المدنيّة سببت له ضعفا فى صحته ، لأنه حُرِم الإقامة طويلا فى الهواء الطلق، وعوض عنها عيشته فى منازل لا تستوفى شرائطها الصحية، وبالغ فى أسباب الترف والرفاهية، واعتاد كثيرا من العبث كالتدخين ونحوه ، وأجهد نفسه فى العمل رغبة فى جمع المال ليسدّ به المطالب الكثيرة للمدنية، كل هذا ونحوه أثر فى صحة المتحضّر فكان أضعف جسما وأقل احتمالا للجهد — اعتبر ذلك فى الحيوانات، فإن الطيور وأنواع الحيوان التى

تغلّب عليها الانسان فحبسها فى قفص أو فى منزل وآستخدمها فى شؤونه أسرع إليها الذبول وكانت عُرضة لكثير من الأمراض .

إن جسم الإنسان آلة كسائر الآلات يجب لبقائها وقدرتها على أداء العمل أن تغذى الغذاء الصالح لها وأن يُعنى بها ، يجب للجسم الهواء النقىّ والغذاء الصالح والرياضة والاعتدال فى العمل .

وإن سوء الصحة أكبر تلف يصيب الإنسان ، فهو يضعف قدرته على العمل ، ويختصر حياته ، ويفسد شعوره — وفى كثير من الأحيان يكون ضعف البدن سببا فى سوء الخلق وملل العقل وعدم قدرته على الإنتاج .

إن صحة البدن هى أساس كل ما له قيمة فى الحياة من مال وحياة ومتاع ، ومما يستوجب الأسف أن هذه الصحة لا تقدّر تقديرا صحيحا إلا بعد ضياعها أو تعرضها للخطر ، وأن كثيرا من الناس لا يراعون قوانين الصحة إلا اذا أُلجئوا الى ذلك بسبب ضعفهم ، وكان أسهل أن يقوا أنفسهم من الضعف قبل حصوله .

لا يستطيع الإنسان أن يكون انسانا كاملا ناجحا فى الحياة نجاحا حقا اذا كان مريضا أو ضعيف الجسم ، وأقدر الناس على الإنتاج أطولهم عمرا فى صحة ، نعم إن كثيرا من عظماء الرجال كانوا مرضى ،

ولكنهم من غير شك كانوا يكونون أكثر إنتاجا وأصح نظرا وأعظم خيرا لأمتهم وللعالم لو كانوا أحسن صحة، ونجاح هؤلاء مع مرضهم دليل على أن قوتهم العقلية أو الخلقية غير عادية حتى استطاعوا أن يأتوا بما أتوا به على الرغم من مرضهم .

مرض البدن أو ضعفه ذو أثر كبير فى الخلق ، فمن العسير ان يكون إنسان كامل الخلق وهو ممعود أو مكبود أو ضعيف الأعصاب ، إنك تراه غالبا ضيق الخلق غضوبا يائسا متبرما بالحياة، وكثيرا ما يسائل نفسه : هل هذه الدنيا تساوى شيئا، وينشد مع أبى العلاء قوله :

تَعَبٌ كُلُّهَا الحَيَا
ةُ فَمَا أَعْجَبُ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِى ازْدِيَادِ

فخير إجابة لهذا أن يقال له : أصلح معدتك أو كبدك أو أعصابك تر أن فى الدنيا ما يسر، وأن فيها ما يحبب الحياة .

إن تضخما قليلا فى بعض غدد المخ يجعل من الصعب على الإنسان أن يعبر عن فكره ، وصدمة لموضع من مواضع المخ تجعل الإنسان معتوها ، واختمارا فى المعدة يحول كل جميل سار فى الحياة الى قبيح مؤلم، وأخذ ملعقة من دواء يزيل هذا الاختمار يحول العالم فى نظره الى ما كان عليه من بهجة وسرور .

obeikandi.com

كان "كَارْلَيْل" معودا، فقال صديق له مساء يوم مشيرا الى السماء — : ما أجمل هذا المنظر! إنه يبعث الحكمة الى نفس الإنسان، فأجابه "كارليل": إنه لايبعث عندى إلا الأسف والحزن وقال مرة: «إن تسعة أعشار بؤسى وأكثر من تسعة أعشار أخطائى يرجع الى اضطراب معدتى» ومثل ذلك كثير، مما يدل على ما لحالة البدن من تأثير كبير فى العقل والخلق .

إزاء هذا كان واجبا على الانسان السعى فى أن يكون صحيحا وقويا، وذلك بأن يتخير من العادات فى أكله وشربه وتنفسه واستحمامه وعمله ما يؤثر أثرا حسنا فى صحته، وألا يُفْرِط فى غذاء عقله على حساب جسمه .

يقول بعضهم : "مَنْ مَرِضَ فَقَد أَجْرَم" وهذا صحيح فى كثير من الأحيان، لأن كثيرا من الأمراض يمكن اتقاؤه باعتياد النظافة والاعتدال فى المأكل وانتظام المعيشة ونحوها ، كما أن كثيرا من الأمراض يمكن الوقوع فيها باعتياد أضدادها .

الناحية العقلية — يخرج الإنسان الى هذا العالم جاهلا بكل شىء ثم يتعلم ما استفادته الأجيال قبله بتجاربهم وممارستهم للعالم الذى حولهم، وأمام كل إنسان طائفة كبيرة من الحقائق ينبغى أن يتعلمها .

وأول ما ينبغى أن يتعلمه تمرين حواسه حتى يكون ما تدركه صحيحا، فإن الموادّ الأولى للمعلومات إنما تأتى من طريق الحواس — السمع والبصر والشم والذوق واللمس ونحوها — فيجب أن يكون إدراكا الذى ينشأ عنها صحيحا، ولا يكون ذلك إلا بتمرينها وتعويدها أن تكسبنا المعلومات الحقة من نفسها لا من طريق التلقين — يجب أن يمرّن الانسان حواسه حتى يعرف بالتقريب طول الحجرة اذا نظر اليها، ووزن الشىء اذا وضعه فى يده، وكم ميلا مشى، وما منزلة الصوت فى القوة والضعف، وأن يكون دقيق الملاحظة فيعتاد اذا نظر الى شىء ثم غاب عنه أن يعرف أوصافه حتى يستطيع أن يحدّثك عنه فى جلاء ووضوح

كل هذه الأمور تفيد عقله فائدة كبيرة، لأن كثيرا من الأخطاء العقلية ناشئ من الخطأ فى المعلومات الحسية، وهذه ناشئة من إهمال الحواس وعدم تمرينها فى مبدأ الحياة .

إن كسب الانسان معلوماته بنفسه من طريق حواسه أوّلا ثم من طريق عقله ثانيا خير من معلومات يجمعها من الكتب من غير اختبار شخصى .

ولا يمكن النجاح العلمىّ إلا بصفات خلقية لا بدّ من توافرها :

(١) تحمل الصعاب والصبر عليها، فالوصول الى الحق يحتاج الى

عناء ومكابدة فى جمع الحقائق وامتحانها ، واستخراج النتائج الصحيحة منها ، فمن لم يتسلح بالصبر لا يمكنه أن يكون عالما ، وكما قيل : " إن العلم لا يعطيك بعضه إلا اذا أعطيته كلك " ليس مجرد الحفظ والاستظهار بل ولا مجرد الفهم مما يصح أن يسمى علما ، إنما العلم أن تمتحن الحقائق بنفسك وتبحثها لتتبين صحيحها من فاسدها ،

(٢) حب الحقيقة ، فلا نندفع وراء عواطفنا فى اعتقاد شيء أو عدم اعتقاده ما لم يثبت لدينا بالبرهان صحته ، نتوقف فى صدور الحكم اذا كانت البراهين لم تتوافر عليه ، لا نُخْدَع بحسن المظهر أو العبارات المنمقة حتى نصل الى كنه الشيء ونزنه وزنا دقيقا ، نلتزم الصدق فى العلم فلا نصبغ الحقيقة بميلنا الشخصي ولا بشهواتنا وأهوائنا ، ويدعونا حب الحقيقة الى أن نوسع صدرنا للنقد يصدر على آرائنا وأفكارنا ، نشغف بالقراءة فلا يكون كل غرضنا من العلم امتحانا ننجح فيه أو شهادة نحصل عليها ، وإنما نقرأ لأن القراءة غذاء عقولنا ، ولكن بجانب هذا يجب أن نتعلم كيف نقرأ ، قال رسكن : "قد تقرأ كل ما فى دار الكتب الانجليزية ثم تصبح بعد — كما كنت — إنسانا غير متعلم ، ولكن اذا أنت قرأت عشر صفحات بإمعان فى كتاب جيد كنت الى درجة ما إنسانا

متعلما " وقال آخر : "لا تعمل القراءة أكثر من تزويد العقل بالمعرفة ، أما التفكير فهو الذى يجعل ما نقرأ جزءا من أنفسنا ، يجب أن ننعم النظر ونطيل الفكر فيما نقرأ ، وليس يكفى أن نثقل أنفسنا بالمعلومات الكثيرة نكدسها ، فما لم نمضغه ونهضمه لا يغذينا ولا يكسبنا قوة" .

الناحية الخُلُقيّة — أهم أسباب الوقوع فى الرذائل شيئان (١) الأَثَرَة أو التغالى فى حبّ النفس . (٢) الجهل .

فالأَثرة نوع من أنواع الضعف متأصل فى الإنسان ، فكل امرئ يتحزب لنفسه ويفكر فيها أكثر مما يفكر فى غيره ، ويدعوه ذلك فى كثير من الأحيان أن يضحى بمصالح غيره وسعادتهم لمنفعته الشخصية ، ذلك هو ما نسميه الأثرة .

حارب المصلحون هذه الأثرة كثيرا ونجحت تعاليمهم ، ففرقٌ كبير بين أثرة المتوحشين وأثرة المدنين ، ولكنها لا تزال باقية ، ولا يزال الطريق طويلا أمام الناس حتى يستطيعوا أن يعاملوا غيرهم كما يعاملون أنفسهم ، ولا تزال هناك عوامل تحيي فى النفوس هذه الأثرة كالحرب وتزاحم الناس على وسائل العيش .

وهذه الأثرة أصل كبير من أصول الشرّ ، فلو بحثت عن أكثر ما يُرتكب من الجرائم لرأيت أن سببها التغالى فى حب النفس ،

وأن المجرم لم يستطع أن يتصور أن يضع نفسه موضع من أجرم معه، ولو وضع نفسه وغيره فى مستوٍ واحد ما استباح لنفسه الإجرام .

والسبب الثانى — الجهل — ونعنى به الجهل بأن الناس مثلنا ، يُحسون إحساسنا، ولهم من الحقوق مالنا، وعلينا من الواجبات ما عليهم ، فالإنسان يتخيل أن ليس لغيره مثل إحساسه ، وأنهم لا يتألمون من الشر كما نتألم ، وأن ليس لهم من الحق فى الحياة والسعادة ماله ، ومن أجل ذلك يتخذهم وسائل لمنفعته الشخصية ، وقد حمله على هذا التفكير السيئ السبب الأول وهو الأثرة .

اذا زال هـذا الجهل واتسع مجال الفكر وعرف الانسان حقا أن الناس مثله سواء بسواء فى شعورهم وحقوقهم وواجباتهم حقق القواعد الذهبية التى وضعها الأنبياء والمصلحون مثل "عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به" و "أحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك" و "اليد العليا خير من اليد السفلى" وفى ذلك تحقيق المثل الأعلى للأخلاق .

* * *

مراعاتك جسمك حتى يكون صحيحا قويا ، وعقلك حتى يكون صحيحا قويا ، وخلقك حتى يكون صحيحا قويا ، هو ما يجب عليك نحو نفسك ، وهذا وحده السبيل لسعادتك وسعادة أمتك بك .

واجب الانسان نحو أسرته

لكل الحيوانات — تقريبا — مأوى تأوى اليه ، فللطائر وكره، وللسبع عرينه، وللنحل خلاياه، ويكاد يكون هذا المأوى أعز شيء عندها ، فما أسعد الطائر يرفرف بجناحيه يروح ليلا الى وكره، وما أخوفه اذا اقترب أحد منه فهدّد بيضه أو فرخه، وما أضرى السبع اذا قصد أحد عرينه — لا شيء يثير الخوف والغضب عند هذه المخلوقات أكثر من أن يُمَسّ بسوءٍ مأواها .

كذلك الإنسان يجب أن يكون بيته أعز بقعة على الأرض عنده — إن علاقة الانسان ببيته أقوى من علاقة الحيوان بمأواه، ذلك لأن حاجة الحيوان الصغير الى أبويه قليلة اذا قيست بحاجة الطفل، فصغار الطيور مثلا بعد أسابيع قليلة تقوى وتطير، وتفارق عشّها وتستقل بنفسها، وتبنى لها عشّا خاصا بها، وتضعف علاقتها بآبائها ان كان ثمّ علاقة . أما الطفل فلا بدّ له من سنين طويلة حتى يستطيع أن يستقل بنفسه، واذا استقل فلا تزال العلاقة بينه وبين أسرته قوية متينة، وسبب ذلك أن بناء الانسان أكثر تركبا، ومطالب الحياة لديه أكثر تعقدا، فهو محتاج الى زمن أطول حتى يتسلح للكفاح فى هذا العالم ويؤدّى واجبه .

فى هذا البيت يتعلم الطفل أهم دروس الحياة، ولو خرج الى العالم قبل أن يستكمل تربيته المنزلية لكان متوحشا، فالبيت فى الحقيقة هو أكبر ممدن له .

فى هذا البيت يتعلم كثيرا من الدروس، فمن حبه لإخوته وأخواته ووالديه يتعلم درس حب الناس وحب الوطن، ومن طاعته لوالديه يتعلم طاعة قوانين البلاد وقوانين الأخلاق .

واذا كان للبيت من المنزلة ما بيّنا كان علينا نحوه واجبات نجملها فيما يأتى :

يجب على كل فرد فى الأسرة أن يعمل على أن يكون بيته أسعد مكان، فخشونة المعاملة وخشونة القول والاساءة وإثارة الشحناء ونحو ذلك كل هذه اذا كانت خارج البيت رذيلة فهى فى البيت أرذل .

ومما يؤسف له أن كثيرا من الناس يتجملون فى أخلاقهم مع أصدقائهم ومن يتعاملون معهم فإذا حلوا فى بيتهم تبدّلت أخلاقهم الى قسوة وخشونة وفظاظة وانقلب ذلك الصوت الهادئ المؤدب الى هجر فى القول وسوء فى الأدب — والحق أن أدل شىء على الأخلاق الحقيقية هو خلق البيت لا خلق الشارع، فخلق الشارع

خلق التصنع، والاختلاف فى المعاملة بين أهل بيته ومن فى الخارج يدل على أن الخلق الجميل ليس شيئا فى نفسه، وإنما هو كالثوب الجميل يلبسه اذا خرج ويخلعه اذا عاد .

كذلك يجب أن نشعر أن منزل الأسرة للأسرة جميعها، فليس من الحق أن يستأثر أحد الأبناء بخير ما فيه، ولا يرعى إلا نفسه، ولا يهتم إلا بما يعود على شخصه .

أول واجب على الأبناء الطاعة للأبوين إلا فى أحوال نادرة يأمر فيها الأبوان بالخطأ الواضح .

يجب أن يشعر كل فرد أنه مسئول — بقدر ما يستطيع — عما يحفظ للبيت سعادته ونظامه ونظافته وحسن العلاقة بين أفراده، وإن خطأة يخطئها أحد منهم تهدد سعادة المنزل وتعرضه للشقاء .

ليست الأمة إلا عدة أسرات، وليست المدينة إلا عدة بيوت، والسلوك الذى يسلكه الناشئ فى بيته ليس إلا صورة مصغرة لسلوكه بعد فى أمته، وإذا كان منبع النهر ملوثا تلوث النهر، فصلاح الأمة وصلاح البلاد دائما هو بصلاح الأسرة .

واجب الانسان نحو وطنه

(الوطنيّة)

الوطنية حب الإنسان لبلاده، أرض آبائه وأجداده، وإنما نحب وطننا لما بيننا و بينه من الصلات المتينة، فقد تربينا فى جوّه وبين قومه، وصرنا منه بمنزلة الفرع من الشجرة، كوّن هواؤه وتربته أجسامنا، وصارت قوانينه وعرفه عاداتنا، وأصبحت طريقة أهله فى مآكلهم وملبسهم وكلامهم طريقتنا، نحنّ اليه اذا نزحنا عنه، ويهيج أشجاننا اليه ذكرانا له، ونأنس بقربه، ونعتز بعزته، ونهون بهوانه.

على أن حب الوطنية يكاد يكون طبيعيا فى كل إنسان، حتى لنرى بعض الحيوانات تحنّ الى أوطانها كما تحنّ الطيور الى أوكارها، ولقد ينشأ البدوىّ فى بلد جدب، ومكان قفر، وهو مع ذلك يسعد بوطنه ويقنع به ويفضله على كل مصر «وترى الحضرىّ يولد بأرض وباء وموتان وقلة خصب، فاذا وقع ببلاد أريف من بلاده وجناب أخصب من جنابه، واستفاد غنى حنّ الى وطنه

ومستقرّه»[1] هذا هو السرّ فى أنك ترى البلد تفشو فيه أنواع الحميات، أو يكون مثارا للبراكين من حين الى حين، أو عرضة لطغيان الماء أو عصف الرياح، ثم لا يبرحه أهله، ولا يعدلون به بلدا سواه «قيل لأعرابى: كيف تصنع فى البادية اذا اشتدّ القيظ وانتعل كل شىء ظلّه؟ قال: وهل العيش الا ذاك، يمشى أحدنا ميلا فيرفَضُّ عرقا، ثم ينصب عصاه، ويلقى عليها كساءه، ويجلس فى فيئه يكتال الريح، فكأنه فى إيوان كسرى».

ويكون حب الوطن عند أكثر الناس فى حالة كُمُون الى أن يَدْهَم وطنهم خطر، أوتوجد دواع تنبههم، فتتنبه مشاعرهم، ويظهر حبهم لوطنهم بأجلى مظاهره، ويدعوهم للعمل على خدمته، فيبذلون نفوسهم وأموالهم فى سبيل نصرته، والذود عن مجده وحريته.

مظاهر الوطنية — يستطيع الإنسان أن يخدم وطنه من طرق عدّة:

(١) الدفاع عن البلاد اذا هو جمت أو أريد التعدّى على حريتها، وهذه هى وطنية الجنود، وقد ظهر هذا النوع من الوطنية

---

(١) الجاحظ.

بأجلى مظاهره فى الحرب العظمى ، فقد بذلت فيها الدماء من كل فريق من المتحاربين بسخاء حفظا على البلاد من التعدّى عليها أو على حرّيتها .

(٢) وقف الحياة على خدمة الوطن ، وهذه وطنية السياسيين والمصلحين ، فالسياسيون يديرون دفّة البلاد نحو ما يرقيها ويعلى شأنها ، ويقودون الرأى العام الى ما فيه مصلحة الوطن ، فان رأوا رأيا لم يرضه عامة الناس عملوا ما يرونه حقا ، ولم يثنهم عن عزمهم تهمة يُتهمون بها ولا نقد يوجه اليهم ، يفضلون عمل الحق ولو أهينوا على عملٍ خطأٍ يرضى الجمهور وان كُرّموا ، عمادهم إخلاصهم ومرشدهم وجدانهم — وأما المصلحون فانهم يرون موضع الداء فيعالجونه ، وكثيرا ما يحدث أن الداء يتأصل فيها حتى تألفه وتظنه السلامة ، فإذا دعاها المصلح الى العمل على الخلاص منه قامت فى وجهه وعارضته وحسبته خارجا عليها ، كما قال الله تعالى : ﴿أَوَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ولكن المصلح يزيده الاضطهاد تمسكا برأيه ودفاعا عنه ، ولا يزال الناس يلتفون حول رأيه شيئا فشيئا حتى يصبح المذهب المقرّر والرأى السائد ، ويعجب الناس اذا نظروا الى ماضيهم كيف

كانوا يعتنقون هذا المذهب الفاسد، وكيف لم يدركوا فساده بمجرد الدعوة اليه .

(٣) أداء الواجب — وهذه وطنية الناس كلهم، فأداء كلّ واجبَه اليومى فى عمله وفى بيته ومع أولاده وأصحابه ومن يعاملونه وانتخابه خير الناس اذا انْتَخَب، ومساعدته المشروعات النافعة بماله وعمله وجاهه — كل هذه وطنية صادقة صحيحة ترفع شأن الوطن وتعلى مكانته .

(٤) تشجيع المصنوعات الوطنية والحاصلات البلدية وتفضيلها على غيرها ما أمكن، كما أن وطنية الصانع والمنتِج تقضى عليهما أن يبذلا الجهد لجعل المصنوع والمنتَج فى حالة لا تقل عن أمثالها مما يرد من الخارج، وعلى الحكومة مساعدة ما تنتجه البلاد نفسها بما تضع من نظام الضرائب ونحوهما ، وإن الأمة اذا ساعدت المصنوعات والحاصلات البلدية تكون قد ساعدت على حفظ الثروة فى بلادها وجعلتها تنتقل من يدها الى يدها الأخرى .

وبعد، فكل إنسان يستطيع بعمله ولو حقيرا أن يخدم وطنه، وليست خدمة الوطن مقصورة على العظماء، بل إن العظماء لايكون لهم أثر كبير ما لم تؤيدهم الأمة ، فالقائد الكبير إنما فخره نتيجة عمله

وعمل الجنود الصغار ، بل وعمل من صنع للجنود نعالهم وملابسهم ونحو ذلك ، والسياسىّ العظيم لايصل الى غرضه إلا بمعونة كتّاب يعينونه فى فروع من العمل مختلفة ، وأفراد يبذلون ما يحتاج اليه من المال وهكذا ، الأمة كالساعة ، كل آلة لها عمل ، ولا بد من أداء كل آلة عملها لينتظم سيرها ، وان كان يختلف عمل الآلات أهمية ، وسير هذه الآلات وانتظامها لا تقع عليه العين عادة ، وإنما مظهر هذا الانتظام سير العقارب ، فاذا دلت على الأوقات بالضبط دلنا ذلك على أداء كل آلة وظيفتها وإلا لا ، كذلك الحوادث العظيمة فى الأمة والنجاح الكبير لها مظهره عظماء الرجال والمصلحون ، ولكن ما كان يتم ذلك فى الحقيقة لولا أعمال آلاف من الناس لم يعرفهم التاريخ ، فهؤلاء الآلاف منزلتهم منزلة آلات الساعة الخفية ، والعظماء بمنزلة عقربى الساعة هما مظهران لأعمال عدّة دقيقة ، غير أن الشأن فى الساعة أنه اذا تعطلت آلة منها وقفت الساعة جميعا أما فى الأمة فإذا تعطل أحد أفرادها عن السير حملت الأمة عبأه وسارت ، فالجندىّ فى الجيش اذا خرّ صريعا سار الجيش وتحمل عبء الجندىّ ، وكان الأولى للجيش ألا يخرّ أحد منه صريعا ، وأن يحمل كل واحد عبئه فقط .

فالفلاح فى زرعه الأرض وعنايته بالبقر والغنم ، والنجار فى صناعته ، والتاجر ببيعه وشرائه ، والجندى بمحاربته ، والكناس فى الشوارع يكنس الأقذار ، والأم تربى بنيها وتُعْنَى بالبيت وشؤونه والخادم بخدمتها ، والأطباء بمحاربتهم الأمراض ومعالجتهم المرضى ، ورجال الحريق بإطفائهم النار ، ورجال العلم الذين ينشرون العلم ويحاربون الجهل ، ورجال السياسة الذين ينصرون الحق ويخذلون الباطل بأقوالهم وأعمالهم ، والشعراء والموسيقيون وجميع رجال الفن الذين يمدون الحياة بالسعادة ، ويُشعرون الناس بالجمال ، كل هؤلاء يخدمون وطنهم بعملهم ، وكل هذه الأعمال لا بدّ منها لسير الأمة الى الأمام ، وكل هؤلاء اذا أدّوا أعمالهم باتقان ولم يراعوا فيها مصلحتهم الشخصية فحسبُ بل راعوا فيها خيرهم وخير الناس فهم وطنيون صادقون يفخر الوطن بهم ، ويشرف بعملهم .

واجب الإنسان نحو الانسانيّة عامة

النوع الانسانىّ مؤلف من أمم وقبائل مختلفة لكل منها ميزَات وخصائص ، وهى مع كثرتها تكوّن جسما واحدا ، كل أمة وكل قبيلة عضو من أعضائه ، يستفيد كل عضو من سلامة باقى الأعضاء ويتضرّر بما يصيبها ، فالحىّ فى المدينة اذا كان قذرا غير صحىّ هدّد جميع أجزاء المدينة بالخطر ، وانتشار الوباء فى جزء من مملكة يعرّض المملكة جميعها للضرر ، والمخترع يخترع آلة جديدة فيستفيد من اختراعها عدد كثير ، والعالِمُ يستكشف حقيقة علمية فيشترك فى الاستفادة منها سائر العلماء فى أنحاء الأرض ، والأمة تجنى جناية كأن تُشْهر حربا فيتضرّر العالم كله منها ضررا بليغا ، وهكذا .

يجب أن يشعر الفرد أنه عضو فى الهيئة الانسانية ، يحب الخير للناس جميعا من أىّ جنس كانوا ، وبأية لغة تكلموا ، وفى أىّ صقع سكنوا ، ويشعر نفسه بالشفقة والرحمة على البائسين أيّا كانوا ، ليس النوع الانسانىّ إلا أسرة كبيرة تقوم الأمم فيها والقبائل مقام الأفراد فى الأسرة ، فيجب أن يكونوا جميعا متعاونين على ترقية نوعهم وتحقيق الخير للانسانية عامة .

إن الانسانية مصابة بمواضع ضعف كثيرة ، فكثير من بقاع الأرض حرمت ضروريات الحياة ، يعيش أهلها عيشة بؤس وشقاء ، تفتك بهم الأمراض وتكتسحهم الأوبئة ، ويفسد حياتهم الجهل — واجب علينا إزاء هؤلاء أن نرقيهم ما استطعنا وأن نرسل اليهم أشعة النور والعلم ونمدهم بوسائل العيش ، كذلك تحدث كل يوم كوارث مزعجة ، فاصابة عمال ، وحوادث اصطدام ، وغرق وحريق ، ونكبات زلزال ، وثوران بركان ، ونحو ذلك من مصائب الحياة ، فالإنسانية توجب إعانة هؤلاء المنكوبين بكل الوسائل ، كالذى ترى من جمعيات الإسعاف والهلال الأحمر والصليب الأحمر والجمعيات الخيرية ، كل هذه تحتاج الى مال ينفق منه على أغراضها ومساعدات تقدم لها .

كثير من المرضى حُرموا وسائل العلاج ، فقر مدقع ، وبيوت قذرة ، ومعيشة تعين المرض على الفتك ، فهؤلاء لا بد لهم من مستشفيات تنفسح لهم ، وأطباء يتولون علاجهم ، وهذه لا بد لها من مال ورجال .

آباء مجرمون حكم عليهم بالسجن فحرم أولادهم العائل الذى يعولهم ، أو تجار أفلسوا أو قعد بهم المرض عن مواصلة السعى فحرمت أسرهم ما يقيم أودهم ، وأفراد نكبوا بعمى أو صمم أو عاهة

جعلتهم من العاطلين لا يجدون ما يأكلون ، كل هؤلاء وهؤلاء لا بدّ أن ترحمهم الانسانية فتزيل كربهم ، وتأخذ بيدهم ، بانشاء المعاهد والمستشفيات وجميع المرافق — يجب أن يتساند القادرون لحمل العبء عمن ضعفوا عن مواصلة السير فى الحياة ، وتخفيف ويلاتهم ، ولذلك وسائل كثيرة كالاشتراك فى الجمعيات التى أشرنا اليها قبل ، والاحسان الى البائسين ونحو ذلك من ضروب الخير .

*
* *

قد كانت أخلاق الناس الأولين قَبَلية(١) ، لا يرون الخير إلا ما فيه نفع قبيلتهم ، وليس عليهم حرج فى أن يَسْلُبوا مال غيرهم ، ويستبيحوا دماءهم ، فما يُرتكب نحو قبيلة غير قبيلتهم لا يعدّ جريمة ، وإنما الجريمة أن يتعدى أحد أفراد القبيلة على مثله ، وليس للفضيلة ولا الرذيلة قيمة ذاتية أو نظر لنتائجها عامة إنما هى فضيلة أو رذيلة تبعا لمن تقع عليهم ، وفى بعض القبائل الى الآن من يعاقب بالموت من يسرق من قبيلته ، ويكافئ ويشجّع من يسرق من غيرها ، وكثير من السائحين والمستكشفين يُقتلون أو يعذّبون اذا وقعوا فى أيدى هذه القبائل ، ولا يشعر القاتلون بحرج من ذلك لأنهم لا يرون قتلهم إثما ، فلما ارتقى الناس قليلا اتسع نظرهم وكانت أحكامهم

(١) نسبة الى القبيلة .

الأخلاقية أقرب الى الصواب، فكانوا ينظرون الى الأمة المكونة من جملة قبائل كأنها جسم واحد، ولكنهم كانوا ينظرون الى الأمم الأخرى نظرة العداء كما كان الشأن عند اليونان قديما ، كان العالم الانسانى عندهم ينقسم الى قسمين : يونانيين ومتوحشين ، يعتقدون فى جبلهم (أوليمبوس) الذى لايبلغ ارتفاعه إلا ٩٧٠٠قدم أنه أعلى جبل على وجه الأرض، وأنه مسكن الآلهة، ويستبيحون الاسترقاق من غيرهم، حتى أن أرسطو كان يقول : " إن الأرقاء حيوانات مستأنسة لها عقل " ولهذا النظر لم يكن اليونان يعدلون فى غيرهم .

ارتقى الناس فيما بعد فكانوا فى حكمهم بالخيرية والشرية والحسن والقبح أوسع نظرا ، تبودلت التجارات بين الأمم ، وحسنت الصلات ، ووجدت القوانين الدولية ، والأخلاق الدولية ،ولم ينظر الفرد من أمة الى الفرد من أمة أخرى نظرة العدو لعدوه، وان كانت لا تزال عند الأمم وفى النفوس بقية موروثة من آبائنا المتوحشين ، ومن أفظع هذه الآثار الحروب بين الأمم ، والناس سائرون الى الكمال، وستتغلب حتما فكرة الإنسانية فينظر الإنسان الى الإنسان من أى جنس كان كأنه أخوه ، لا يظلمه ولا يخونه ، يعدل معه كما يعدل مع أفراد أسرته ،وسيضمحل النظر الشخصى أو الجنسى خضوعا لسنة النشوء والارتقاء ، ويحل محله

النظر العالمي، فينظر كل فرد الى النوع الإنساني كأنه جسم واحد، يعمل على ترقيته، وتتعاون الأمم وتتبادل المنافع، وترمي كلها الى غرض واحد : هو كمال النوع .

وهذا النظر لا يتنافى مع الوطنية، فكما أن الفرد في الأسرة يعمل لخيره وخير أسرته كذلك الفرد في الأسرة الكبيرة — وهي الجنس البشري — يعمل لخير وطنه وخير الإنسانية .